

القيم الأخلاقية في تخطيط وتزيين المساكن في الغرب الإسلامي

Moral values in planning and decorating homes in the
Islamic West

أمين كرتالي ♦

جامعة تخيى فارس المدية، kartaliamine@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/11/18 تاريخ القبول: 2026/01/20 تاريخ النشر: 2026/01/31

الملخص باللغة العربية:

كثيرة هي القيم الأخلاقية التي صاحبت عملية تخطيط وتزيين المساكن في الغرب الإسلامي، وهو ما سأحاول التعرض له من خلال الكشف عن أهم تجليات الجوانب الأخلاقية في بناء المساكن. وبعد الرجوع إلى أهم المصادر التي تحدثت عن العمارة الإسلامية عموما وقضايا العمران في المغرب والأندلس على وجه الخصوص على غرار كتب النوازل والفقه والحسبة وبعض كتب الجغرافيا، ناهيك عن بعض الدراسات المتخصصة لقضايا العمران توصلت معتمدا على المنهج التاريخي الذي يندرج ضمنه المنهج التحليلي والوصفي إلى عدد من القيم التي نستشفها في هذا المجال، على غرار قيم الرحمة واللفظ، وعدم الغش، وحفظ الخصوصية، ومراعاة القبلة في تصميم الحمام، ناهيك عن القيم الأخلاقية التي دعت إلى ضرورة تجنب الاسراف والتبذير دون إخلال بجمالية البيت ورونقه، إضافة إلى تجنب تصوير ذوات الأرواح والتماثيل، حيث كان الفكر الإسلامي يعمل ظواهر عدد من النصوص في حرمتها، إلى غير ذلك من القيم الأخلاقية التي تبرز تأثير العمران في الغرب الإسلامي بالمنظومة الفقهية والقيم المستمدة من الشريعة الإسلامية وغير ذلك من القيم الأخلاقية. وهو ما يؤكد انفراد العمران في الحضارة الإسلامية عموما بعدة خصائص، ومدى احتفاظه بالنزعة الأخلاقية التي تجلت في تخطيط المساكن وبناءها وتزيينها.

الكلمات المفتاحية: العمران؛ الغرب الإسلامي؛ الحسبة؛ البيوت؛ الأخلاق؛ النوازل؛ الحضارة.

Abstract: There are many ethical values that have contributed to regulating the process of planning and decorating homes in the Islamic West, which I will attempt to address by revealing the most

♦ المؤلف المرسل

important manifestations of the ethical aspects of housing construction.

After returning to the most important sources that dealt with Islamic architecture in general and urban issues in Morocco and Andalusia in particular, such as books on calamities, jurisprudence, Hisbah, and some geography books, not to mention some specialized studies of urban issues, I came to a number of values that we sense in this field, such as the values of mercy and kindness, not cheating, preserving privacy, and observing the Qiblah in bathroom design. Not to mention the moral values that call for the necessity of avoiding extravagance and waste without compromising the beauty and splendor of the house, in addition to avoiding depicting what has a soul, such as humans and animals, and the prohibition of erecting statues.

And other moral values that highlight the influence of the Islamic West's urban development on the jurisprudential system, values derived from Islamic law, and other moral values.

This confirms the uniqueness of urbanization in Islamic civilization in general with several characteristics, and the extent to which it maintains the moral tendency that was evident in planning, building and decorating homes.

Keywords: Hisbah, urbanism, Islamic West, The houses, Ethics, middle Ages.

مقدمة:

امتازت الحضارة الإسلامية ببعدها الأخلاقي، فالأخلاق حاضرة في شتى ميادين الحياة، بما فيها العمارة وما يختص بها من عناصر أساسية وجمالية، وشكلت المساكن مظهراً من مظاهر العمران، فعمارة المدن وتبحرُها تُقاس بعدد المساكن والمنشآت والمرافق ونوعية البناء وخصائصه.

سنحاول في هذا المقال أن نُبرزَ تلك القيم الأخلاقية التي رافقت تخطيط المساكن وتزيينها بإقليم الغرب الإسلامي، محاولين الإجابة على الإشكالية الآتية: كيف تجلّت القيم الأخلاقية في طريقة تخطيط وبناء وتزيين المساكن ببلاد الغرب الإسلامي؟

أولاً وقبل أن نبدأ في الإجابة على هذه الإشكالية ينبغي التنبيه إلى أن العمارة في الغرب الإسلامي لم تختلف من حيث الضوابط المؤطرة لها عن العمارة في بقية أجزاء العالم الإسلامي، فقد ظلّت الشريعة الإسلامية بما أنتجته من أحكام وقواعد متعلقة بالجدار ومسائل الجوار هي المهيمنة.

أمين كرتالي

كانت البيوت العربية قديماً لها عدّة أسماء بحسب مادّتها، فمثلاً الخباء هو بيت مصنوع من الصوف، والنجاد من الوبر، والفسطاط من الشعر، والقشع من الجلود، والطراف من الأدم، والحظيرة من الأغصان والأفنة من الحجر، والشدة من الطين، وكان منها البيت المسطح المعروف بالأطم، والعالي المعروف بالصرح، والمربع المسمى كعبة، والمطول المرتفع المعروف بالمشيد، والمطول المعقود يسمى أزجا، والمخطط المسمى بالأبلق. أمّا في المغرب الإسلامي فغلب على المساكن تسميات: البيت والمنزل والمسكن والدّار والقصر وربما استعمل في بعض اللهجات مصطلح الحوش ويراد به البيت.

1- التفصيل العام للبيت في الغرب الإسلامي:

حرص المعماري العربي على حماية بيته من الحرّ صيفاً والبرد شتاءً، لذلك جعل مسكنه على هيئة مربع أو مستطيل، ثمّ وزّع حجراته حول صحن أو وسط مكشوف، وعمل فيه الإيوان الذي انتشر منذ العصر العباسي، وفتح عليه غرفه وحجراته، وكيفه مع المناخ بإتقان تصميمه فتحكّم في اختيار مواده، فبنّاه بما توقّر لديه، كاللبن والطوب في أكثر البلدان لقدرته على عزل الحرارة والرطوبة وقلّة تكاليفه، وبنى بالحجر في بلاد الشام، والمدن الساحلية واستخدم الحجر في شبه الجزيرة العربية ومصر وعدد من مدن المغرب الإسلامي، وعقدت أسقف البيوت وقببت بهذه المواد¹.

نلاحظ أنّ البيوت في المدينة الإسلامية أو حتى القرية تخضع لمجموعة من المعايير الهندسية المستمدة من روح التشريع الإسلامي، وأول هذه المعايير طريقة البناء الأفقي للمسكن، بمعنى منع المنازل العمودية أي ذات الطوابق، لأنّ ذلك كان يعدّ مطيئةً لكشف العورات، ولم يكن عدد السكّان بالكثرة التي تدفعهم إلى العمارة العمودية، مادام هناك مبدأ تقرّه الشريعة الإسلامية الذي يسمح باستصلاح الأرض وعمارتها. وكان البيت الواسع من الأمور المحبّبة عند المسلمين، لما ورد في الشريعة من الثناء على البيت الواسع² كما تؤكّده عدّة أحاديث نبوية ثابتة، على غرار قوله صلى الله عليه وسلم: (أربع من السعادة المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيئ)³.

2- طرق البناء:

1-عاصم محمد رزق-معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية-مكتبة مدبولي-مصر-ط1، 2000-ص38-39.

2-محمد علي-فلسفة العمران الإسلامي في العصر الوسيط-العبر للدراسات التاريخية والأثرية، العدد 02 سبتمبر-2018-ص44؛ ص61.

3-رواه ابن حبان، رقم: 4032، وقال الألباني رحمه الله أنّه حديث صحيح.

اختلفت طرق البناء من مدينة إلى أخرى ، وذلك بحسب الإمكانيات والظروف الطبيعية المحيطة بالمدن ، فمدينة تلمسان وبعض مدن الأندلس عرفت السقف الجملوني المستم⁴ ، وذلك لما تعرفه هذه المدن من تساقط للثلوج. أما مدينة مراكش فكانت منازلها مبنية من الطوب المصنوع من التراب والطين أولا ، فلما أراد أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين (476-537هـ/1083-1143م) بناء قصره استخدم الحجر المجلوب من جبل إيجليز القريب من مراكش ، بينما مدينة فاس قد استخدم أهلها الحجر والآجر والكلس في أبنتهم مع أسقف خشبية لمنازلهم ، وكان الطابع العام في تنظيم البيت : باب يؤدي إلى دهليز يتناسب مع حجم البيت ، ومن الدهليز إلى صحن البيت حوله الغرف ، وقد تكون الدار أرضية أو ذات طابقين.

و إذا كانت الدار كبيرة فقد يكون لها أمام الغرف أروقة تدفع عنها حرّ الشمس ومطر الشتاء ، وإذا توفرت المياه فإن الناس يصنعون فوارة في صحن الدار ، وقد تكون طريقة البناء مشابهة لمباني إحدى المدن الشرقية ، كتشابه أبنية سجلهاسة بمساكن الكوفة ، حيث يقول ابن حوقل إنَّ أبنية مدينة سجلهاسة كانت تشبه مباني الكوفة فكانت تشتهر بأبوابها الرفيعة و قصورها المشيدة والعالية ، وهذا يرجع إلى وجود كثير من التجار الوافدين من الكوفة وغيرها⁵ بينما كانت مدينة سوق حمزة⁶ -نواحي البويرة حاليا- تُبنى من الطوب⁷.

أما القصور فقد امتازت بالسعة والضخامة واشتمالها على كل ما يحتاجه صاحب القصر ، فيقول المنوني عن قصور مراكش ، يكفي أن كل قصرٍ من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام و الاصطبلات والمياه وغير ذلك ، حتى يغلق الرئيس منهم بابه على

4- هو سقف يتكوّن من قطعةٍ مسطّحة تعلوها رافدين مائلتين لتلقيان وتشكلان مع القطعة السفية ما يشبه المثلث ، حيث يساهم هذا السقف في منع تجمع الأمطار ، وبشكل عازلا حراريا ، ويُستعمل أيضا لإضفاء طابع جمالي على المسكن.

5- محمد ابن حوقل صورة الأرض-ليدن-1938-ج1ص91.

6- حمزة: تقع في نواحي البويرة حاليا ، وقد حددت موقعها في كتابي "معجم الأماكن الجزائرية " تقريبا نواحي عين بسام. يُنظر: أمين كرتالي-معجم الأماكن الجزائرية الواردة في كتاب المغرب للبكري "التعريف بها وتحديد أماكنها"-دار الباحث-الجزائر-2024-ط1-ص55.

7- محمد بن أحمد المقدسي-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم-دار صادر-بيروت-ط3-1991م-ج1ص228.

جميع خوله وأقاربه وما يحتاج له أمر إلى خارج داره ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكل ولا يقرئ أولاده في مكتب خارج)⁸.

3- القيم الأخلاقية التي تجلّت في البيوت بالغرب الإسلامي:

تعدّدت القيم الأخلاقية المستمدّة من العرف السائد ومن تعاليم ديننا الشريف⁹، وكان لهذه القيم الأخلاقية تجليات واضحة في عمارة البيوت والمساكن.

3.1- قيم الرحمة واللطف:

كانت الكثير من البيوت الإسلامية تتجلى في نمط تصميمها مظاهر الرحمة والإنسانية، فمثلاً هناك ما يسمى بالجلسة أو المصطبة وهي في المصطلح الأثري المعماري كتلة بنائية من الحجر أو الرخام تتكون من عدة مداميك منحوتة ترتفع على جانبي المداخل الرئيسية للمنشآت المعمارية¹⁰.

فإضافة إلى ما كانت تحقّقه من أغراض جمالية ومساهمتها في المحافظة على سلامة الجدار الخارجية، كان الغرض منها أيضاً أن يجلس عليها الشيخ أو المرأة الحامل، أو يتكئ عليها من ينتظر قدوم صاحب البيت ويضع عليها أغراضه.

وحرصاً على الرفق بالماء وتحقيق جمالية الشارع، منعت السلطة القائمة آنذاك أي تشويه لمنظر المدينة أو اعتداء على شوارعها ومرافقها، إذ كان هناك محتسبون يمنعون إقامة أي بناء يعترض الشارع حتى لو كان مسجداً، وكان يُمنع أيضاً وجود بروجيات واضحة في المباني أو وجود أي مصاطب تؤثر على سعة الطريق أو تضيق المارة، بل ويؤمر السكان بإزالة مخلفات المطر والطين، وعدم الذبح في الشوارع، وإزالة المباني المتداعية والآيلة للسقوط حرصاً على سلامة الناس وعدم اتساخ ثيابهم أو إلحاق الضرر بيهم¹¹.

لقد أدانت كتب الحسبة كلّ أشكال التعدي على الطرقات الضيقة مثل الجلوس في قارعتها، وإخراج مصطبات الدكاكين والفواصل والأجنحة وغرس الأشجار أو ربط الدواب

8-حسن علي حسن-الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين"-مكتبة الخانجي-مصر، ط1، 1980-ص390-391.

9-اتّصفت الحضارة الإسلامية عموماً بالترعة الأخلاقية، وقد قال رسولنا الكريم: بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، فدين الإسلام هو دين الرحمة والإحسان واللطف...وقد أشار إلى ذلك غوستاف لوبون حين أشاد بأخلاق الإسلام وأنها السبب في إسلام المصريين وغيرهم من الشعوب. ينظر: أمين كرتالي- الحضارة الإسلامية "نظمها وإسهاماتها في ميادين العلوم والفنون والصناعات-دار الباحث-2024-ط1-صص39-40.

10-محمد رزق-المرجع السابق-ص68.

11-أحمد علي اسماعيل-دراسات في جغرافية المدين-دار الثقافة-القاهرة-ط4-1988-ص72.

على الطرق ، أو طرح القمامة والجيف وإرسال الماء من المزاريب ، أو ترك مياه المطر والأحوال في الطرق من غير كسح¹².

يؤكد الجرسيفي هذا السلوك عندما قرّر أنه يجب علي المحتسب-النظر في شوارع المسلمين وأسواقهم ، فيزيل ما يُنَجّسها ، ويمنع أي بناء يضيّقها أو يجعلها مظلمة أو وعرة على السالكين ، فيمنع وضع كالأجنحة والسّوابيط ، والبيع في الطرق ، لما في ذلك من تضيق شوارع المسلمين ، وقد استدل الجرسيفي بفعل عمر رضي الله عنه حين أمر بهدم كير الحدّاد الذي مرّ به في الطريق ، ومما حدّر منه الجرسيفي إحداث الكُنف والميازيب والسباحات ، وطرح الميئة وشبه ذلك¹³.

وإن كانت كتب الحسبة تشددت في محاربة هكذا مظاهر ، فإنّ ذلك لا يمنع ما كان يحدثه ذوو التّفوذ في فترات ضعف الدّولة من الاعتداء على الشوارع وذلك بسبب النزعة البدوية التي ربّما تظهر في سلوكيات بعض السّاكنة من تغليب المصالح الخاصة ولو على حساب المرفق العامّ من خلال أولوية البيت على الطريق والمساحات العامّة وهو ما أفرز مثل هذه المظاهر التي شوّهت منظر المدينة وغطت على محاسنه¹⁴.

3.2- عدم الغش:

حرصت كتب الحسبة والأحكام على ضبط عمران المنازل ، لذلك كان في الغالب يتم بناؤها وفق المعايير المتفق عليها ، وذلك بسبب ما في شريعتنا من النهي عن الغش وحرمة ، ولذلك نجد التّهي عن أيّ خداع يقع من البناء لصاحب البيت.

12- محمّد بن محمّد ابن الإخوة القرشي-معالم القرية في أحكام الحسبة-تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي-الهيئة المصرية العامة للكتاب ط1-1976-صص135-136 ؛ محمد بن أحمد العقباني-تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر-تحقيق: علي الشنوفي-Extrait du bulletin d'Etudes Orientales de l'institut Français de Dama 1967-صص66-63 ؛ أحمد بن عبد الله بن عبد الروؤوف-في آداب الحسبة والمحتسب-ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب-تحقيق: ليفي بوفنسال-مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة-1955-ص111.

13-عمر بن عثمان الجرسيفي-في آداب الحسبة والمحتسب-ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب-تحقيق: ليفي بوفنسال-مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة-1955-ص122.

14-محمد عبد الستار عثمان-المدينة الإسلامية-عالم المعرفة-أغسطس 1988-عدد 128-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت-ص ؛ هشام جعيط-الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية-دار الطليعة-بيروت-ط-1993-ص145.

ومن أنواع الغشّ عدم تصريح البناء لصاحب المسكن بالمؤنة الواجبة والسّلع الضرورية للبناء من أجل تسهيل أمر البناء على صاحب المسكن ، ثمّ حين يشرع في البناء يخبره بالمؤنة المطلوبة وقد أكّد ابن الحاج صاحب المدخل أنّ هذا نوعٌ من أنواع الغشّ ، وذلك أنّ صاحب البيت لو أدرك منذ البداية كلفة البناء لما أقدم ، وفكّر مليّاً ، لكنّه بسبب تغرير البناء به ربّما عجز عن إتمام البناء وسداد المستحقّات إلّا بدين.

كما حدّرت كتب الأحكام والحسبة البتّائين من الإسراع في العمل لأنّ الغالب فيمن يُسرّع الإخلال بالعمل فتكون طوبه خارجة عن حدّ الجدار وأخرى داخله فيه بسبب الإسراع وذلك عيبٌ في العمل ونقصٌ في الصنعة وسببه يحتاج إلى التّرميم عن قُرب لِضَعْفِ الجدار بسبب الخلل الذي بين الطوب ، كما حدّرت هذه الكتب من البناء بمواد لا تتلاءم وطبيعة المكان ، فيجب البناء بالحجر حيث لا ينفع إلّا الحجر ، والبناء بالقرميد في الموضع الذي ينفع فيه القرميد¹⁵.

ولم تخل المدن الإسلامية من وجود عريفٍ وهو شيخُ صناعة يكون ثقة وعارفا يمارس رقابته على أبناء حرفته بكلّ صرامة وشفافية ويسمّى هذا العريف أيضا شيخ صناعة والتّقيب ، فعريف الجبّاسين يحرص على أن يتمّ تصفّته وعدم خلطه بها يذهب صلابته¹⁶.

ومن أجل ضمان سلامة البنايات أمرت كتب الحسبة بتغريم البناّ الذي لا يستعمل الزوايا والموازين والخيوط التي تُقوّم البناء ، وتمنع من ميلانه¹⁷.

ولا شك أنّ هذه الكتابات الفقهية والأحكام التي تداولها النّاس ساهمت في ضبط العمران وإثراء الثقافة المعمارية لدى المجتمع ، وعرّفت أصحاب المساكن بحقوقهم وما يجب على البناّ من واجبات ، فقد صار العرفاء والمحتسبون والأمناء يلزمون النّاس بتلك القواعد التي غدت دستوراً معلوماً وسنّة متبعة وعرفاً معمارياً ساهم في صيانة الببوت وضبط عمارتها.

3.3- المسكن الفسيح المنسجم مع كرم العائلة المسلمة:

حدّثت الشريعة الإسلامية على إكرام الضيف ، فالضيافة في الإسلام ثلاثة أيام ، فما زاد على ذلك فهو صدقة ، وثبت في الصحيحين في قوله صلى الله عليه وسلم: (الضيافةُ ثلاثةُ أيّامٍ ، فما زاد فصدقةٌ) أخرجه أبو داود.

15- محمد ابن الحاج-المدخل-د.ت-دار التراث-ج4ص196.

16-ابن بسام المحتسب-نهاية الرتبة في طلب الحسبة-تحقيق: حسام الدين السامرائي-مطبعة

المعارف-بغداد-1968ص6 ؛ ابن الإخوة-المصدر السابق-حصص343-346.

17-ابن بسام-المصدر السابق-ص144.

وقد حرص المسلم على أن يكون بيته واسعاً، وفيه غرفة لإيواء الضيوف من الأقارب والأصدقاء، خصوصاً وأنَّ الإسلام حظَّ على البيت الواسع ففي الحديث: من سعادة المرء: الجار الصالح، والمركب الهنيء، والمسكن الواسع (رواه أحمد). ومن أجل أن يجد الضيف راحته ولا تحدث مشقة بحلوله، كانت تخصص غرفة للرجال وغرفة للنساء، يفصل بينهما ردهة أو حوش، ويكون باب غرفة الرجال غير مقابل لغرفة النساء، يتم حجب الرؤية بما تيسر من أعمدة أو أشجار وغيرها. وكان الفناء أشبه بالرئة التي تعطي المتنفس لكل أجزائها¹⁸.

كما كان يتم وضع المرحاض في الفناء الخارجي كي لا تحدث مشقة للضيف وأيضا ليسهل صرف الفضلات عبر القنوات، ومن أجل أن لا يتلوث الهواء فداخل الغرف برائحة المرحاض.

3.4- المحافظة على خصوصية البيت وحفظ العورات:

حثَّت الشريعة الإسلامية على مظاهر الحشمة والوقار، وأمرت بحفظ العورات والحفاظ على عفاف المجتمع وصلاحه، لذلك نجد أن كتب الأحكام والفقه حوت الكثير من النصوص التي تُراعي الخصوصية وتحت على ستر العورة: فكان يراعى عند تصميم المسكن ما يضمن عدم اطلاع الغرباء والأجانب على عورات أهل البيت، من خلال واجهات المسكن والنوافذ والشرفات، بحيث يتم الحرص على أن تفتح النوافذ الخارجية بنفس أسلوب المشربيات التقليدية¹⁹.

وقد عرفت العمارة الإسلامية المبكرة تغطية فتحات الشبايك بأحجية أو حواجز مختلفة الزخارف والمواد كالجص والزجاج الملون والخشب والمعدن²⁰ واشتهرت المشربية أو المشربة وهي حاجز أو واجهة من خشب الخروط يوضع أمام النوافذ من الخارج لكي يستر به من بالبيت ويمكنهم من رؤية من بالشارع دون إمكانية حدوث العكس، محققا بذلك بعضا من تعاليم الإسلام التي حضت النساء على التحجب وحضت الرجال على غض البصر وعدم اختلاس النظر إلى المحرم²¹.

18-محمد رزق-المرجع السابق صص38-39.

19-يحيى وزير-العمران اوالبنيان في منظور الإسلام-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الكويت ط1-2008 ص169.

20-محمد رزق-المرجع السابق ص73.

21-محمد رزق-المرجع السابق ص262.

وأثبتت الحفريات وجود المشربيات في قصر الحير الشرقي على مقربة من الرصافة في سورية الذي يرجع تاريخه إلى سنة (111هـ/729م)، الأمر الذي يؤكّد خطأ المستشرق مارتن برجس الذي زعم أن المسلمين أخذوا فكرة المشربيات عن الصليبيين²².

وحرصاً على ستر نساء المسلمين عمد أصحاب البيوت إلى تصميم مدخل البيت بالأسلوب المنكسر، فيكون هناك باب خارجي مطل على الشارع، ثمّ الدهليز المنحرف وهو ممّر وباب داخلي²³. وكان المراد من انكسارها هو إخفاء من الداخل عن السائرين بالخارج، وفي بعض الأحيان تشتمل البيوت على ممرات داخلية تمكن من التنقل بين أجزائها دون المرور بالفناء²⁴.

ولعل حرص الشريعة الإسلامية على حفظ العورات هو أحد أسباب كراهية البناء العمودي أو ما يسمى بالتطاول في البنيان لما فيه من الاطلاع على الخصوصيات، وأيضاً لما قد يحصل فيه من المباهاة و التفاخر، أو وقوع الضرر على الجيوان في حالة حجب الشمس والهواء²⁵.

وقد أمر عمر رضي الله عنه واليه عمرو بن العاص أن يُراعى في بناء البيوت إذا زاد ارتفاعها عن طابقين و أن تُرفع النوافذ في الطابق الأرضي إلى القدر الذي لا يسمح بأن يطل أحد من أهل الدار على جاره فيجرح حرمة حتى ولو كان المطل واقفاً على مقعد. وهو ما جرى العمل به في عمارة المدن الإسلامية كلها فيما بعد، ولعل هذه الأحكام هي التي دفعت بالكثير من السكان إلى عدم سكنى الأدوار الأرضية²⁶.

وقد استدللّ الفقهاء في مسألة إحداث الكوة والنافذة بعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رجلٍ أخذت غرفة تُطلُّ على دار جاره، ثمّ فتح فيها كُوةً، فكتب إليه عمر ابن الخطاب أن يوضع وراء تلك الكوى سرير، ويقوم عليه رجل فإن كان ينظر إلى ما في الدار منع من ذلك، وإن كان لا ينظر لم يمنع من ذلك²⁷.

3.5- الأدب في اختيار مكان البيت:

نصحت كتب الفقه والأحكام والسياسة ألا يختار المسلم مسكنه في مكان يجعل فيه أهل بيته معرضين لفساد أخلاقهم أو الإضرار بغيرهم أو الاطلاع على عوراتهم، فذكر

22- أحمد السراج-العمارة الإسلامية خصائص وآثار-غزة-2015-ص290.

23-وزيرى-المرجع السابق-ص171.

24-محمد رزق-المرجع السابق- صص38-39.

25-وزيرى-المرجع السابق-ص185.

26-محمد رزق-المرجع السابق-صص38-39.

27-ابن الرامى-الإعلان بأحكام البنيان-تحقيق: عبد الرحمن بن صالح الأطرم-رسالة ماجستير-جامعة

محمد بن سعود الإسلامية-المكتبة المركزية-1403-ص125.

ابن الحاج أنه ينبغي ألا يسكن المسلم على البحر ، وَيَمْنَعُ النِّسَاءُ مِنْ ذَلِكَ مَهْمَا اسْتَطَاعَ جَهْدُهُ وَعَدَّدَ أسباب هذا المنع بأنه يشبه الجلوس على الطرقات الذي ورد فيه النهي .
وأيضا لأنَّ الْبَحْرَ طَرِيقٌ لِمُرُورِ الْمَرَكَبِ ، فَإِذَا نَظَرَتِ النِّسَاءُ رَأَتْ غَوَازِي النُّوَائِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُغْتَسِلِينَ ، نَاهِيكَ عَنْ سَمَاعِهِنَّ لِلْكَلامِ الْفَاحِشِ الَّذِي يُمْنَعُ لِلرِّجَالِ سَمَاعُهُ فَكَيْفَ بِالْمَرْأَةِ ؟ وَلَهَا يَحْدُثُ فِي الْبَحْرِ مِنَ اللَّهْوِ وَهُوَ خَطَرٌ عَلَى النِّسَاءِ . إضافة إلى أن أهل البيت يَنَكِّشُونَ بِجُلُوسِهِنَّ فِي الطَّرِيقَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَيَرَى ابْنُ الْحَاجِّ أَنَّهُ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ صَاحِبُ الْبَيْتِ بَنَاتٌ أَوْ إِمَاءٌ أَوْ غَيْرُهُنَّ فَتَزِيدُ الْمَفَاسِدُ بِحَسَبِ ذَلِكَ²⁸ .

ومن الأماكن التي نهى الفقهاء عن بناء المساكن فيها لأجل عدم الإضرار بالمسلمين وأهل البيت على السواء ، الْبِنَاءُ عَلَى النَّهْرِ ، وَيَرَى ابْنُ الْحَاجِّ أَنَّ الْبِنَاءَ عَلَى النَّهْرِ أَكْثَرُ ضَرَرًا وَأَشَدُّ مِنْ تَضْيِيقِ الطَّرِيقِ ؛ لِأَنَّ الطَّرِيقَ يُمَكِّنُ الْمُرُورَ فِيهَا مَعَ تَضْيِيقِهَا بِخِلَافِ النَّهْرِ فَمَنْ بَنَى عَلَيْهِ كَانَ غَاصِبًا لَهُ ، فَالنَّهْرُ مُؤَرَّدٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَمَنْ بَنَى فِيهِ سَبَبٌ فِي زِيَادَةِ الْمَشَقَّةِ عَلَى مَنْ يَرِغِبُ فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُ .

ولأجل ضبط العمران وحماية المرافق العامة وموارد المياه وغيرها حدّد العلماء مساحة الخلاء الذي ينبغي تركه دون بناء أو تعمير ، فَقَالَ الْعُلَمَاءُ : (إِنَّ حَرِيمَ الْعُيُونِ خَمْسُمِائَةِ ذِرَاعٍ وَحَرِيمَ الْأَنْهَارِ أَلْفُ ذِرَاعٍ وَاخْتَلَفُوا فِي حَرِيمِ الْبُئْرِ فَقِيلَ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا ، وَقِيلَ خَمْسُونَ ، وَقِيلَ ثَلَاثُمِائَةٍ ، وَقِيلَ خَمْسُمِائَةٍ ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَوْضِعِ الْبُئْرِ)²⁹ .

كما منعت كتب الحسبة والأحكام الفقهية وغيرها من البناء في المقابر لما فيه من انتهاك حرمة الميت ، والإضرار بمن يرغب في زيارة القبور للاتعاظ³⁰ . وأيضاً من باب الأدب مع الله وبيته ، منع الفقهاء والقضاء وغيرهم مظاهر البناء فوق سطوح المساجد .

3.6- القبلة وتوجيه العمران:

ومن الأمور المتعلقة بالأدب ، ما يمكن أن نصطلح عليه بالأدب مع القبلة ، يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: (ولعل أبرز ما يميز الأنماط المعمارية الإسلامية أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها ومرتفعاتها حول وجهة القبلة أو بتعبير أدق نحو القبلة(المسجد لحرام)³¹ .

فقد ورد في الحديث عن القبلة: "لَا تَسْتَدِيرُوهَا بِبُؤْلِ أَوْ غَائِطٍ وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا" ، أخرجه البخاري ومسلم ، وقد اختلف الفقهاء حول المعنى من الحديث ، ولكن

28-ابن الحاج-المصدر السابق-ج1ص246.

29-نفسه-ج1ص247.

30-نفسه-ج1ص18.

31-وزير-المرجع السابق-ص75.

أمين كرتالي

نرى أن المسلمين كانوا كثيراً م يوجهون بيوتهم تجاه القبلة ، ويحرفون المرحاض عن سمت القبلة ، رغم ميل المالكية لإغيرهم إلى أن استقبال القبلة أو استدبارها يحرم في الفضاء وليس في المرحاض المستور في البيوت وغيرها لما في الموطأ أن ابن عمر رضي الله عنهما رآه عليه السلام في بيت حفصة مستديراً الكعبة مستقبلاً بيت المقدس³².

3.7- ضرورة الحفاظ على نظافة المحيط والشارع:

الإسلام دين النظافة والطهر ، فالطهور شطر الإيمان ، لذلك انعكست هذه الخصوصية على بيوت المسلمين ، فكان على المسلم أن ينظف فناء بيته و يمنع تسرب ماء الصرف الصحي في الطريق ، ويلزم بشق القنوات وتنظيف ما انسكب من ماء ، كما ينهى أصحاب القواديس من طرح الماء على المارة ، وينبغي عليهم إصلاحها ، وعلى رب الدار كنس المرحاض وإصلاح الوأهي³³.

ولتحقيق العدالة وصيانة المرافق العامة والحفاظ على نظافة المحيط يرى المالكية أنه إذا انسدت قناة المرحاض في الشارع في أولها ينقيها أصحاب المنازل الأولون دون من بعدهم ، أما إن انسدت في آخرها فينقيها الأولون مع الآخرين³⁴.

ومن باب الحرص على النظافة جاء الأمر بتنظيف الطريق ، وعدم تلويثها ، والنهي عن الجلوس في قارعتها أو الإضرار بسالكها أو اتخاذ المصاطب في أبواب الدور والأفنية³⁵. وأدانت كتب الحسبة أيضاً كل أشكال التعدي على الطرقات الضيقة كطرح القمامة والجيف وإرسال الماء من المزاريب ، أو ترك مياه المطر والأحوال في الطرق من غير كسح³⁶. وأمرت كتب الحسبة بضرورة منع أي تسرب لمياه قنوات الصرف الصحي في الطرقات ، خصوصاً في فصل الصيف³⁷.

يقول الجرسيفي: (ويجب عليه -المحتسب- النظر في شوارع المسلمين وأسواقهم ، فيما ينجسها أو يوعرها... وكذلك إحداث الكنف والميازيب والسباخات ، وطرح الميته وشبه ذلك³⁸).

3.8- الإحسان إلى الجيران:

32-القرافي-الذخيرة-تحقيق: محمد بو خبة-دار الغرب الإسلامي-بيروت-ط1-1994-ج1ص204.

33-نفسه -ج5ص493.

34-القرافي-نفسه-ج6ص193.

35-العقباتي-نفسه-صص62-63؛ بلحاج طرشاوي-العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية من خلال بعض النماذج-أطروحة دكتوراه-السنة الجامعية: 2006-2007-صص175-176.

36-ابن الإخوة-المصدر السابق-صص135-136.

37-محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي-ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب-ص37.

38-الجرسيفي-المصدر السابق-ص122.

حرصت الشريعة الإسلامية على ضبط علاقة الجيران ، فحثت على الإحسان ونهت عن إضرار بعضهم ببعض ، وفي حالة ما إذا تهادى الجار في الإضرار بصاحبه فيتدخل صاحب الشرطة أو المحتسب أو القاضي لردعه ، وقد رخص بعض الفقهاء وغيرهم في أن يداهم المحتسب البيت الذي يجتمع فيه أهل الفساد والانحراف إذا سمع فيه صوت فسّاد للأمر بالمعروف والنهي¹.

وضبطت كتب النوازل والفروع الفقهية والحسبة والأحكام قضايا ومسائل الجوار المتعلقة بمن يسكن في الطابق العلوي والسفلي ، فمثلا الدّار التي فيها بُيوتٌ وساحةٌ ولها غُرفٌ وسطوحٌ يحقّ فيها لصاحب الغُلوّ الاستفادة من الساحة وكذلك يحقّ للجار السفلي الاستفادة من السطح الأعلى ، وإذا رثَ خَشَبُ الغُلوّ الذي هو أرضُ الغُرفِ والسطحِ فإصلاحه على ربِّ السُّفلِ ، وإذا سَقَطَ الغُلوّ على الأسفلِ جَبَرَ صاحب السُّفلِ على بنائه أو بيعه ممن يَبْنِي حتّى يَبْنِي على ربِّ الغُلوّ غُلوّه².

ومن باب الإحسان إلى الجار وحفظا لعورة أهله ، يَنْبَغِي وَ يَتَعَيَّنُ عَلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْبَنَائِينَ مَنْ هُوَ مَعْرُوفٌ بِالذِّينِ وَالنِّقَّةِ وَالْأَمَانَةِ ، فَإِنْ اضْطُرَّ لاختيار بناء لا يعرف مدى أمانته فيجب أن يكون حاضراً معه أو مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ مِمَّنْ يَجُوزُ لِلْحَرِيمِ أَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ³.

3.9- مسائل الجدار والسقف:

عالجت كتب الحسبة مسائل الجدار وأحكامه ، وقد خُصَّ الجدار بكتابات للفقهاء مثل كتاب الجدار لعيسى بن دينار وأحكام الجدار للتطيلي⁴. وتحدثت هذه الكتب عن تنازع الجيران حول الجدار المشترك⁵ وحكم وضع باب في هذا الجدار أو هدمه ومن الذي يجب عليه أن يبادر إلى إصلاحه إن كان مائلا⁶.

أشارت أيضا هذه الكتب إلى بعض ما يتعلق بالخشب المُسند للجدار والنوافذ التي تكون في الجدار⁷ ، بينما نصّت كتب الحسبة على هدم الحائط المائل⁸ ، يقول التجيبي عن

1-عمر بن عوض السنامي-نصاب الاحتساب-تحقيق: مريزن عسيري-مكتبة الطالب الجامعي-مكة المكرمة-1986م ط1-ص343.

2-القرافي-المصدر السابق-ج7ص205.

3-ابن الحاج-المصدر السابق-ج4ص197.

4-عيسى بن موسى التطيلي-كتاب الجدار-إبراهيم بن محمد الفايز-الرياض ط1-1996-صص119-120.

5-ابن الرامي-المصدر السابق-ص6.

6-نفسه-ص35.

7-ابن الرامي-المصدر السابق-ص33.

8-العقباني-المصدر السابق-صص62-66.

عن ذلك: (ولأنَّ البنيان هي الأكنان ، ومأوى الأنفس والمهيج والأبدان ، فيجب تحصينها وحفظها¹) ، لذلك أوصى ابن عبدون بضرورة تدعيم الجدار بالخشب ، وانتقاء الخشب الجيد وأن تكون حَبَات الأجر وافرة إلى غير ذلك من الشروط².

كما تحدّثت كتب الحسبة عن السّفف وما يجب أن يكون عليه ، وأيضا أحكام السقف المشترك بين من يسكن في الأعلى ومن يسكن في الأسفل³.

3.10- الاقتصاد وعدم الإسراف:

دين الإسلام يحضّ على الجمال والحسن ، ولكنه يقدّم مصلحة الإنسان على غيره من الجماد ، ويسعى لتحصيل الكماليات بعد استيفاء الضروريات ، لذلك نجد في نصوص شرعية كثيرة النهي عن البذخ والترف ، والأمر بالزهد والتقشف ، وهي نصوص لا تعني النهي عن البناء والتعمير والزخرفة والتزيين.

لقد مدح الله سبحانه وتعالى سيّدنا سليمان عليه السلام وذكر ما كانت تصنعه له الجنّ من ضروب من العمارة وبداع الصناعة. كما قصّ علينا قصة بلقيس وعرشها العجيب ، وأشار إلى مساكن عاد وثمود ومساكن سبأ وسدّهم وغيرها من مظاهر الرقي الحضاري الذي عرفته الشعوب قبل الإسلام.

وقد حصّت عدّة آيات على عدم الإسراف المبالغ فيه كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾⁴ فالآيات تحض على عدم المبالغة في تزيين وبهرجة المسكن⁵.

وكانت بدايات العهد الإسلامي تشهد منازل بسيطة نظرا لقلّة موارد الدّولة وقلة ذات اليد ، وحين عمّ الرخاء ظهر عنفوان العمارة وتأثّق الناس في بناء المساكن وتزيينها ، فمثلا في عهد المرابطين امتازت مساكنهم بالضخامة والقوة والانتساع مع الإقلال من الزخرفة وهذا يتماشى مع المبدأ الديني الذي نشأوا عليه مع ميلهم إلى البساطة⁶.

وكانت نصوص الشّرّع تضبط مسائل الزخرفة والتزيين ، فنجد مثلا الخلاف حول استعمال الحرير في السُّتُور التي تُوضَعُ فِي الْبُيُوتِ مُعَلَّقَةً ، حيث مال البعض إلى جوازها لِأَنَّهَا لِبَاسُ الْحَيَاطَانِ وَهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ⁷.

1- ابن عبدون-المصدر السابق-حصص 34-35.

2- ابن عبدون-المصدر السابق-حصص 34-35.

3- التّطيلي-المصدر السابق-حصص 132-133.

4- (الزخرف ، آية : 33)

5- وزير-المرجع السابق-ص 174.

6- حسن علي-المرجع السابق-ص 376.

7- القرافي-المصدر السابق-ج 13 ص 262.

وتحدّث ابن الحاج في المدخل عمّا ينبغي للبناء من عدم مسaire صاحب البيت في عمل ما يتنافى مع الشرع ، فلا يطاوعه في عمل الزخرفة والطلاء بالذهب لئلا يكون معيناً لصاحب البيت على إضاعة المال والسرف¹.

3.11- الصور والتمثيل:

حرّمت شريعة الإسلام صور وتمثيل ذوات الأرواح كالباري ونحوه ، ولأنّ المسلم يرغب في أن تكون بيئته الملائكة ، فقد تقيّد بالشرع وامتنل النهي الوارد في الأحاديث التي تقضي بأنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تمثيل وصور فقد خلت بيوت المسلمين وزخرفتها من هكذا أشياء من باب الأدب مع الشرع والملائكة².

ورغم هذا النهي فقد كانت أكثر جدران الأبنية -غير الدينية- تزين بمناظر صيد وطرب وموسيقى ونحو ذلك مما كانت تستخدم فيه الألوان المائية الزاهية ، أما الأبنية الدينية من المساجد والمدارس والخانقاوات ونحوها فقد اقتصر الفنان المسلم في تزيينها على كل ما لا صلة له بمضاهاة خلق الله سبحانه في شق التصوير التشخيصي ، فاستخدموا فيها الزخارف التجريدية ذات العناصر النباتية والهندسية والكتاتبية لكرهيتهم محاكاة الطبيعة أو تقليدها برسم الأشكال الآدمية أو الحيوانية³.

خاتمة:

وبهذا نكون قد تحدّثنا عن أهمّ القيم الأخلاقية التي تجلّت في بناء السكون واختيار أماكنها وطرائق تزيينها ، وهو ما يؤكّد أنّ الحضارة الإسلامية ظلّت تحظى بمرافقة الشريعة الإسلامية ، تهذبّ جوابها وتصوّب خطأها ، فأصبح ذوق المسلم وطبعه ينفر من كلّ ما يتصادم والقيم الأخلاقية التي دعت إليه الشريعة والأعراف.

قائمة المراجع

- 1- ابن الرامي- الإعلان بأحكام البنين- تحقيق: عبد الرحمن بن صالح الأظرم- رسالة ماجستير- جامعة محمد بن سعود الإسلامية- المكتبة المركزية- 1403.
- 2- ابن بسام المحتسب- نهاية الرتبة في طلب الحسبة- تحقيق: حسام الدين السامرائي- مطبعة المعارف- بغداد- 1968.
- 3- أحمد السراج- العمارة الإسلامية خصائص وآثار- غزة- 2015.
- 4- أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف- في آداب الحسبة والمحتسب- ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب- تحقيق: ليفي بوفنسال- مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة- 1955.
- 5- أحمد علي اسماعيل- دراسات في جغرافية المدن- دار الثقافة- القاهرة- ط4- 1988.

1- ابن الحاج ،-المصدر السابق- ج4 ص195.

2- السنامي-المصدر السابق- ص178.

3- محمد رزق-المرجع السابق- صص51-52.

أمين كرتالي

- 6- أمين كرتالي- الحضارة الإسلامية "نظمها وإسهاماتها في ميادين العلوم والفنون والصناعات- دار الباحث- 2024 ط1-صص 39-40.
- 7- أمين كرتالي-معجم الأماكن الجزائرية الواردة في كتاب المغرب للبكري "التعريف بها وتحديد أماكنها"- دار الباحث-الجزائر-2024-ط1.
- 8- بلحاج طرشاوي- العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية من خلال بعض النماذج- أطروحة دكتوراه- السنة الجامعية-2006-2007.
- 9- حسن علي حسن- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين- مكتبة الخانجي- مصر- ط1-1980.
- 10- حسن علي حسن- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"- مكتبة الخانجي- مصر- ط1-1980.
- 11- عاصم محمد رزق- معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية- مكتبة مديولي- ط1-2000- مصر.
- 12- عمر بن عثمان الجرسيفي- في آداب الحسبة والمحتسب- ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب- تحقيق: ليفي بوفنسال- مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة-1955.
- 13- عمر بن عوض السنامي- نصاب الاحتساب- تحقيق: مريزن عسيري- مكتبة الطالب الجامعي- مكة المكرمة-1986م- ط1.
- 14- عيسى بن موسى التطلبي- كتاب الجدار- إبراهيم بن محمد الفايز- الرياض- ط1-1996.
- 15- القرافي ، الذخيرة- تحقيق: محمد بو خبة- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1-1994.
- 16- أحمد ابن الحاج- الهدخل- د.ت- دار التراث.
- 17- محمد ابن حوقل- صورة الأرض- ليدن-1938.
- 18- محمد بن أحمد العقباني- تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المنابر- تحقيق: علي الشنوفي-،-Extrait du bulletin d'Etudes Orientales de l'institut Français de Dama- 1967 .
- 19- محمد بن أحمد المقدسي- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم- دار صادر-بيروت- ط3-1991م.
- 20- محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي- ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب- تحقيق: ليفي بوفنسال- مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة-1955.
- 21- محمد بن محمد ابن الإخوة القرشي- معالم القرية في أحكام الحسبة- تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي- العينة المصرية العامة للكتاب- ط1-1976.
- 22- محمد عبد الستار عثمان- المدينة الإسلامية- عالم المعرفة- أغسطس 1988- عدد 128- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت.
- 23- محمد علي- فلسفة العمران الإسلامي في العصر الوسيط- العبر للدراسات التاريخية والاثريّة-جامعة ابن خلدون تيارت-العدد 02 سبتمبر - 2018.
- 24- هشام جعيط- الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية- دار الطليعة- بيروت- ط2-1993.
- 25- يحيى وزيري- العمران والبنيان في منظور الإسلام- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت- ط1-2008.